الكريم مفرّقاً ليثبّت عزّ وجل بآي الذّكر الحكيم الّتى تنزل تباعاً فؤاد المصطفى ﷺ ويقوّي قلبه عليه الصّلاة والسّلام. وحينما نزّل الله تعالى القرآن الكريم في هذه الطّريقة تنزيلاً تمكّن المصطفى ﷺ من ترتيله ترتيلا، وتيسّرت قراءته على المصطفى ﷺ تيسيراً، وقد اقترن بذلك تبيين ربّ العزّة والجلال معاني القرآن الكريم للمصطفى ﷺ، فتأكّد بذلك تثبيت الفؤاد، والتّمكّن من تطبيق تعاليم الكتاب العزيز الّتى تنزل تباعاً، فيزداد التّثبّت والاطمئنان.

وإنّ هذه الحكم المتلاحقة من نزول القرآن الكريم ينال منها الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم الخير الوفير والثّواب الكثير.

وهكذا تثبّت الآية الكريمة فؤاد المصطفى ﷺ، وسبق أن تبيّن أنّ الآية الكريمة السّابقة قد مهّدت لهذا التّثبيت.

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾

ولا يأتونك بمثل : ولا يأتيك يا محمّد هؤلاء المشركون بمثلٍ يضربونه[1].

وأحسن تفسيراً : وأحسن ممّا جاءوا به من المثل بياناً وتفصيلا[2].

سبق أن جاء في الآيتين الكريمتين الثّامنة والتّاسعة من السّورة الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وقال الظّالمون إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وسبق أن تبيّنّا معنى القول : ﴿إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحورا﴾ ما تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً مغلوباً على قواه العقليّة بقوىً خفيّةٍ شرّيرة، وبذلك يكون القوم الظّالمون قد جعلوا مَثَلَ المصطفى ﷺ مثل الرّجل المسحور. وبشأن الأمثال الّتى ضربها الظّالمون للنّبيّ ﷺ سبق أنّ تبيّنّا أنّ الظّالمين الّذين جعلوا مثل المصطفى ﷺ مثل الرّجل المسحور جعلوا مثله عليه الصّلاة

(١) تفسير الطّبرى ١٩/٨..

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/٨.

والسّلام مثل السّاحر والكاهن والشّاعر والكاذب. وما إلى ذلك : ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾.

في ضوء ما سبق يكون معنى الآية الكريمة ـ والله تعالى أعلم ـ ولا يأتيك الّذين كفروا يا محمّد بمثلٍ وبأنّ مثلك مثل الشاعر والسّاحر ومن إليهما إلاّ جئناك بالحقّ الّذى يزهق الباطل ويدمغه، وبالبيان الأجمل الّذى يكشف الزّيف ويدفع الحيف ويحقّ الحقّ.

ومن أجمل ما ينبغى التّنويه به جمع الآية الكريمة في نسق بين جملتي : «أتى» و«جاء» والمعروف أنّ جملة : «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّماني أو المكانيّ أو النّفسيّ المعنويّ، وأنّ جملة : «جاء» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّماني أو المكانيّ أو النّفسيّ المعنويّ. وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقول بذلك. إنّ الّذين كفروا حينما يصفون المصطفى ﷺ بأنّ مثله مثل السّاحر أو الكاهن وما إلى ذلك إنّما يأتون كذباً بعيداً، ويرتكبون شططاً أكيدا، ويكتسبون إثماً مبيناً. وفي كلّ مرّةٍ يرتكب الكافرون هذا الظّلم ويأتون هذا الكذب يجىء الله تعالى بالحقّ المبين، ويوحى بآي الذّكر الحكيم. وهكذا يحقّ الحقّ ويسفر وجهه ويبدو كفلق الصّبح الجميل، ويزهق الباطل ويسودّ وجهه ويبدو كحنادس اللّيل البهيم[1].

(١) الحنادس، ثلاث ليالٍ في آخر الشّهر، والمفرد الحِنْدِس، بكسر الحاء والدّال، بمعنى الظّلمة. والبهيم : الأسود.

ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾

تشير الآية الكريمة إلى العاقبة الوخيمة للكافرين. إنّهم يوم القيامة يُحْشَرون على وجوههم ويُسْحَبون عليها في طريقهم إلى النّار وبئس القرار. إنّ أولئك الكافرين شرٌّ مكاناً في نار جهنّم، وأضلّ سبيلاً وهو كفرهم الّذى أفضى بهم إلى العذاب المقيم في النّار وبئس القرار.

(٣)

(الكافرون لا يعتبرون بكلّ آيات الله تعالى،ويفرحون بشركهم، وهم أضلّ من الأنعام)

الآيات (٣٥ – ٤٤)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾

الكتاب : التّوراة[1].

وزيرا : معيناً وظهيرا[2] والوِزر : الثِّقْل. والوزير المتحمّل ثِقْلَ أميره وشُغْلَه[3].

القوم : القبط فرعون وقومه[4].

لقد آتى الله سبحانه وتعالى، منّاً منه وفضلاً، موسى عليه السّلام الكتاب، وأعطاه التّوراة، كما جعل الله تعالى، منّاً منه وفضلاً، أخاه هارون عليه السلام وزيراً، يحمل معه ثِقْل الأمانة، ونبيّاً، يشاطره مهمّة النّبوّة.

وفي هذا القسم الّذى يذكر كوكبةً من النّبيّين وعقاب أقوامهم المكذّبين يبدأ السّياق بذكر موسى وأخيه هارون عليهما السّلام. والمعروف أنّ موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل، وأنّ عيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل. والمعروف أنّ شريعة موسى عليه السّلام هى الأساس، وعماد هذه الشّريعة التّوراة، وأنّ شريعة عيسى عليه السّلام متمّمةٌ لشريعة موسى عليه السّلام، وأنّ الإنجيل متمّمٌ للتّوراة. ومن الأدلّة على ذلك أنّه قد جرى على ألسنة الجنّ في سورة الأحقاف

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٩.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وزر» ٢/ ٦٧٥و٦٧٦.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٩ والجلالين.

ذكر موسى عليه السّلام وليس عيسى عليه السّلام. قال عز من قائل[1] : ﴿قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدى إلى الحقّ وإلى طريقٍ مستقيم﴾.

إنّ ربّ العزّة والجلال أمر موسى وهارون عليهما السّلام بأن يذهبا إلى القوم الّذين كذّبوا بآيات الله تعالى وحججه، إلى القبط، فرعون وقومه. وإنّ فرعون وقومه حينما أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم أخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر، بأن أغرق عزّ وجلّ فرعون وقومه في بحر القُلْزُم، أي البحر الأحمر، ونجّى الله تعالى موسى عليه السّلام ومن معه أجمعين.

وإنّما كان الحديث عن موسى عليه السّلام ابتداءً في هذه السّورة الكريمة وفي غيرها من السّور الكريمات، بسبب أوجه الشّبَه المتعدّدة بين الدّعوتين المحمّديّة والموسويّة. ومن أوجه الشّبه أنّ كلاً من الرّسولين الكريمين من أولى العزم من الرّسل الخمسة، وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه، ومنها أنّ كلاً من الرّسولين الكريمين قد أوحى الله تعالى إليه بكتابٍ سماويّ، القرآن الكريم في حقّ محمّد بن عبد الله ﷺ، والتّوراة في حقّ موسى عليه السّلام، ومنها أنّ كلاً من الرّسولين الكريمين قد صادف من قومه العنت. إنّ في تدمير الله تعالى قوم موسى عليه السّلام المكذبين نذارةً لقوم محمّد ﷺ المكذّبين. وإنّ في نصر الله تعالى موسى عليه السّلام بشارةً لمحمّد بن عبد الله ﷺ بأنّ النّصر العزيز من الله تعالى قريبٌ بإذن الله تعالى. وإنّ الحديث عن موسى عليه السّلام كأنّه الحديث عن عيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل، ثمّ تحوّل الحديث إلى نوحٍ عليه السّلام.

---

(١) سورة الأحقاف ٣٠.

وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾

وقوم نوح : واذكر قوم نوح[١].

وأعتدنا : وأعددنا[٢].

نوحٌ عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى إلى الخلق. وقد لبث عليه السّلام في قومه بنصّ القرآن الكريم[٣] ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، وما آمن معه عليه السّلام إلاّ قليل، بنصّ القرآن الكريم أيضاً[٤] وبسبب طول الفترة الّتي قضاها نوحٌ عليه السّلام في قومه قيل في الآية الكريمة : ﴿لمّا كذّبوا الرّسل﴾ فكأنّ ثمّة مجموعةً من الرّسل الكرام قد بعثهم الله تعالى إلى القوم. ثمّ إنّ تكذيب واحدٍ من الرّسل تكذيبٌ لسائرهم.

إنّ ربّ العزّة والجلال قد أغرق قوم نوح عليه السّلام بالطّوفان، وجعلهم آيةً للنّاس وعبرةً للمعتبرين. إنّ على النّاس أن يعتبروا بالإغراق فيبادروا إلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. وإنّ على النّاس أن يعتبروا بنعمة الفُلك أي السّفينة[٥] إنّ الله تعالى الّذي نجّى نوحاً والمؤمنين في السّفينة هو الّذي ينجّي النّاس دائماً، وإنّ الله تعالى الّذي أغرق قوم نوحٍ عليه السّلام هو القادر على أن يغرق النّاس. وقد أعدّ الله تعالى للظّالمين عذاباً في الآخرة بعد عذاب الدّنيا أليما.

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ١٠.

(٣) سورة العنكبوت ١٤.

(٤) سورة هود ٤٠

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فلك» ٢/ ٤٩٨.

وَعَادًا وَثَمُودَا
وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾

وعاداً وثمود وأصحاب الرّسّ : واذكر عاداً[١] قوم هودٍ عليه السّلام، وكانوا في جنوب الجزيرة العربيّة. وثمود قوم صالح عليه السّلام، وكانوا في شمال الجزيرة العربيّة. والرّسّ اسم بئر. ونبيهم قيل شعيب وقيل غيره، كانوا قعوداً حولها فانهارت بهم وبمنازلهم[٢].

وقروناً : وأمماً[٣] وأقواماً[٤].

بين ذلك : بين عاد وأصحاب الرّسّ[٥].

تبّرنا تتبيرا : استأصلناهم فدمّرناهم بالعذاب إبادة[٦] وأهلكناهم إهلاكاً[٧].

واذكر في الكتاب عاداً قوم هودٍ عليه السّلام، وثمود قوم صالحٍ عليه السّلام، وأصحاب الرّسّ، أي البئر الّتي انهارت بأهلها وبمنازلهم فيما يقال، وأمماً بين ذلك كثيراً، وأقواماً بين عادٍ وأصحاب الرّسّ لا حصر لهم. لقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال لكلّ أولئك الأقوام كي يعقلوها ويتوبوا إلى الله تعالى، وحينما أصرّوا على كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى أخذهم عزّ وجلّ جميعاً

---

(١) الجلالين.

(٢) انظر الجلالين و تفسير الطّبرى ١٩/ ١٠و١١.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١١.

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ١١.

(٧) الجلالين.

أخذ عزيزٍ مقتدرٍ واستأصل شأفتهم.

ويلاحظ أنّ السّياق بعد أن ذكر نوحاً عليه السّلام أوّل الرّسل تحوّل إلى الأمم التّالية، فقرن بين عاد وثمود، على عادة القرآن الكريم في ذكر هاتين الأمّتين معاً، ثمّ ذكر أصحاب الرّسّ الّذين يتأخّرون زمناً على نحو ما يفهم من القول : ﴿وقروناً بين ذلك﴾ أي أمماً وأقواماً بين عادٍ وأصحاب الرّسّ.

وبشأن القول : ﴿وكلاً ضربنا له الأمثال﴾ نستطيع أن نفهم أنّ المراد بالأمثال تلك الأقوال المأثورة المشهورة الّتي تجرى على الألسنة في المواطن المشابهة للمواطن الّتي أنشئت فيها. وهذا النّوع من الأمثال جاءت الإشارة إليه في مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة العنكبوت[1] : ﴿مثل الّذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون. إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيءٍ وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للنّاس وما يعقلها إلاّ العالمون﴾ كما نستطيع أن نفهم أنّ المراد بالأمثال الآيات والعبر الّتي يُتّعظ بها ويُعْتَبَر. وهذا النّوع من الأمثال جاءت الإشارة إليه في مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الزّخرف[2] : ﴿فاستخفّ قومه فأطاعوه. إنّهم كانوا قوماً فاسقين. فلمّا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين. ولمّا ضُرِب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يَصدّون﴾ فمعنى السّلف أنّ جعلناهم متقدّمين يتّعظ بهم الغابرون. ومعنى قوله : ﴿ومَثَلاً﴾ أي عبرةً يعتبر بها المتأخّرون[3] ويكون المثل بمعنى الآية. قال الله عزّ وجلّ في صفة عيسى، على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام[4] : ﴿وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل﴾ أي آيةً تدلّ على نبوّته[5].

---

(١) الآيات ٤١-٤٣.

(٢) الآيات ٥٤-٥٧.

(٣) لسان العرب : «مثل».

(٤) سورة الزّخرف ٥٩.

(٥) لسان العرب: «مثل».

ونستطيع أن نفهم أنّ أصحاب الرّسّ متأخّرون زمناً وقريبون من زمن البعثة المحمّديّة، على صاحبها أفضل الصّلاة وأزكى التّسليم.

وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ
كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

القرية : هي سدوم قرية قوم لوط عليه السّلام[1].

أمطرت مطر السَّوْء : مطر السّوء هو الحجارة الّتي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها[2] والسَّوْء، بفتح السّين، مصدر ساء، والسُّوء، بضّم السّين، الاسم[3].

الحديث عن الأقوام الّذين أهلكهم الله تعالى من لدن نوحٍ عليه السّلام إلى موسى عليه السّلام وأصحاب الرّسّ، بقصد أخذ العبرة، حديثٌ عن أممٍ قد مضت هي وكثيرٌ من آثارها كأمس الدّابر. أمّا قرى قوم لوطٍ عليه السّلام، فإنّها معروفةٌ لكفّار مكّة، ومن هنا كانت العبرة أبلغ، ومن هنا كان قوم لوط آخر الأقوام الّذين يتحدّث السّياق هنا عنهم. وإلى هذا المعنى أشار قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً لأهل مكّة في سورة الصّافّات[4] : ﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وباللّيل، أفلا تعقلون﴾.

إنّ الآية الكريمة من سورة الفرقان الكريمة تقول : ولقد أتى كفّار مكّة، في سفرهم إلى الشّام ومنها، على قرى قوم لوطٍ عليه السّلام الّتى أمطرها الله تعالى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١١.

(٣) انظر ـ مثلاً ـ لسان العرب : «سوأ».

(٤) الآية ١٣٧ و١٣٨.

مطر السَّوْء، وهي الحجارة الّتى أهلكتهم، وقد جعل الله تعالى عالي تلك القرى سافلها بسبب إتيانهم الذّكران في الأدبار.

وفي أسلوب الإنكار تسأل الآية كفّار مكّة الّذين كانوا يمرّون بقرى قوم لوطٍ عليه السّلام ولكنّهم لا يعتبرون : ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ ولمّا كان القوم يرون تلك القرى بعيونهم الّتى في رءوسهم ولكنّهم لا يعتبرون لأنّهم لا يؤمنون بالبعث، ولا يعملون لما بعد الموت، فقد جاء في الآية الكريمة القول : ﴿بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ إنّ عدم رجاء كفّار مكّة الثّواب يوم القيامة وعدم الخوف من العقاب يجعلهم لا يفكّرون في يوم القيامة أساساً.

ونحن حينما ننظر إلى آثار الأمم الّتى ذكرتها آيات القسم الكريمة نستطيع أن نتبيّن أنّها تكاد تكون محصورةً في آثار ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام، وآثار قوم لوطٍ عليه السّلام. وحينما يجمع السّياق في نسقٍ بين عادٍ وثمود، تبقى آثار قوم لوطٍ عليه السّلام بارزة، وهذا ما عناه السّياق بتأخيره قرى لوطٍ عليه السّلام في الذّكر. ثمّ إنّ أهل مكّة إذا مرّوا بقرى لوطٍ عليه السّلام مصبحين وباللّيل، يستطيعون أن يفعلوا ذلك في الذهاب والإياب في وقتٍ أقصر من المرور ذهاباً وإياباً بديار ثمود، والوقت الأقصر في مثل هذه الحال أبلغ في الدّلالة. ومع كلّ ذلك فإنّ كفّار مكّة لا يعتبرون بل يتمادون في ضلالهم وعنادهم.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ
لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

إن يتّخذونك : ما يتّخذونك[1].

إلاّ هزواً : مهزوءاً به[2].

إن كاد ليضلّنا : إن مخفّفة من الثّقيلة مهملة وجوباً. اللاّم هي الفارقة بين إن الّتى تفيد التّوكيد وإن النّافية[3].

إنّ كفّار مكّة العمي البصائر فرحون بكفرهم فخورون بشركهم! إنّهم إذا رأوا المصطفى ﷺ يستهزئون به عليه الصّلاة والسّلام ويسخرون منه ويقول بعضهم لبعضٍ مشيراً في تعالٍ واستكبارٍ إلى النّبيّ ﷺ : أهذا هو الرّجل الّذى بعثه الله تعالى! ألا يوجد سوى هذا الرّجل الفقير الذى يمشى في الأسواق طلباً للرّزق. أين هذا الرّجل الفقير من أغنياء قريتي مكّة والطّائف الأغنياء العظماء! وإنّ هذا الرّجل، لعذوبة الكلام الّذى جاء به، أوشك أن يضلّنا ويصرفنا عن آلهتنا من الأصنام والأوثان، إلى دين الإسلام وتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة لولا أن صبرنا على آلهتنا وعضضنا بالنّواجذ على عبادة الأصنام والأوثان!.

إنّ هؤلاء المشركين الفرحين بشركهم سوف يعلمون حين يرون العذاب يوم القيامة أنّهم هم الأضلّ سبيلاً والأسوأ مصيرا.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٢.

(٢) الجلالين.

(٣) انظر ـ مثلاً ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٩٣.

أَرَءَيْتَ

مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

أرأيت من اتّخذ إلـهه هواه : الهمـزة للاستـفهام. إلهـه : مفـعول به ثانٍ منصوب بالفتحة مقدّم للاهتمام به، واسم الضّـمير مضاف إليه. هواه : مفعول به أوّل، واسم الضّمير مضاف إليه[1].

أفأنت : الهمزة للإنكار[2].

وكيلاً : حفيظا[3].

إن هم إلاّ كالأنعام : ما هم إلاّ كالبهائم[4].

أرأيت يا محمّـد أعجب من ذلك الّذى اتّخذ ما يهواه مـعبوده من دون الله تعالى. أفأنت تكون عليه حفيظاً ورقيباً. إنّ عليك البلاغ وحده، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد.

أم تحسب يا محمّـد أنّ أكثرهم يسمعون ما يقـال لهم سماع تدبّر أو يعقلون ويفهمون مـعنى ما يقال لهم أو يبصرون. ما هم إلاّ كالبهـائم الّتي لا عقول لها، بل هم أضلّ من الأنعام سـبيلا، لأنّ الأنعام بغـريزتها تفرّ من الشّـرّ والضُّرّ، إلى الخيـر والنّفع، وهؤلاء يعطّلون عقـولهم، فيكونون في مـستـوى الأنعام، ثمّ هم يعملون ما يضرّهم ولا ينفعهم، فهم أحطّ من الأنعام فهماً وإدراكاً، وأضلّ طريقاً وسـبيلا.

(١) انظر ـ مثلاً ـ الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٩٤.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٩٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٢.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٢.

(٤)

(الله تعالى خالق كلّ شيءٍ ومدبّره، فهو المستحقّ وَحْدَه أن يُعْبَد)

الآيات (٤٥ – ٦٢)

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

ألم تر : يا محمّد[١].

إلى ربّك : إلى فعل ربّك[٢].

كيف مدّ الظّلّ : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس[٣] والظِّلّ أعمّ من الفيء فإنّه يقال : ظلّ اللّيل وظلّ الجنّة، ويقال لكلّ موضعٍ لم تصل إليه الشّمس ظلّ، ولا يقال الفيء إلاّ لما زال عنه الشّمس[٤] والفيء شرقيّ والظّلّ غربيّ. وإنّما يُدعى الظّلّ ظلاًّ من أوّل النّهار إلى الزّوال ثمّ يدعى فيئاً بعد الزّوال إلى اللّيل[٥].

ساكناً : دائماً لا يزول[٦].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٢.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٢. وتفسير ابن كثير ٦/ ١٢٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «ظلل» ٢/ ٤٠٩.

(٥) لسان العرب : «ظلل».

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٣.

يسيرا : سهلاً[1] هيّناً[2] وشيئاً بعد شيء[3].

ألم تر يا محمّد إلى لطيف صنع ربك جلّ وعلا كيف مدّ الظّلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس وجعله مستمرّ الزّيادة والنّماء، ولو شاء عزّ وجلّ لجعله ساكناً ثابتاً لا يطرأ عليه أيّ تغيير، وليس في ذلك السّكون مصلحة العباد والبلاد، بل المصلحة في ازدياد النّور باضطراد حتّى طلوع الشّمس. ثمّ جعل عزّ وجلّ الشّمس دليلاً عليه، فيبدو الظّلّ طويلاً بعيد طلوع الشّمس، وبقدر ارتفاع الشّمس في كبد السّماء يأخذ الظّلّ في الانحسار حتّى يكون وقت الزّوال وتّتجه الشّمس غرباً ويتّجه الظّلّ شرقاً ويفيء من الغرب إلى الشّرق ويسمّى آنذاك فيئاً كما يسمّى ظلاّ. وباتّجاه الشّمس نحو الغروب يأخذ الفيء في الطّول حتّى يكون طول الفيء قبيل الغروب كطول الظّلّ بعيد الشّروق. وبعد غروب الشّمس يقبض اللّطيف الخبير إليه الظّلّ قبضاً يسيراً هيّناً وشيئاً بعد شيء، إلى أن يختفي الظّلّ المودّع في اللّيل البهيم.

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى يفعل كلّ ذلك هو المستحقّ لأن يُفْرَدَ بالعبادة وحده لا شريك له.

ودليلاً على وجود الظّلّ مع غياب الشّمس قول الحقّ جلّ وعلا عن أصحاب اليمين في سورة الواقعة[4] : ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدرٍ مخضودٍ. وطَلْحٍ منضود. وظلٍّ ممدود﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير٦/ ١٢٣ و تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٤) الآيات ٢٧ـ٣٠.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

لباساً : ستراً يستترون به كما يستترون بالثّياب[١].

سباتاً : راحةً تستريح به أبدانكم وتهدأ به جوارحكم[٢].

نشوراً : يقظةً وحياةً[٣] ونشوراً من النّوم إذ كان النّوم أخا الموت[٤] من قولهم : نَشَرَ الميّت نشورا[٥] والحقيقة أنّ نشر الله الميّت مستعارٌ من نشر الثّوب[٦] وصحّت الرّواية عن النبيّ ﷺ أنّه كان يقول إذا أصبح وقام من نومه : الحمد لله الّذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النّشور[٧].

كان حديث الآيتين الكريمتين السّابقتين عن الظّلّ. وقد عرفنا أنَّ الظّلّ يكون قبل طلوع الشّمس، وبعد طلوعها، وبعد غروبها. أي أنّ الظّل يكون مع وجود الشّمس ومع غيابها قبيل الطّلوع وبعيد الغروب. وبطلوع الشّمس يكون النّهار الخالص، وبغياب الظّلّ بعد الغروب يكون اللّيل الخالص. إنّ اللّيل النّهار

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نشر» ٢/ ٦٣٦.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نشر» ٢/ ٦٣٦.

(٧) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

الخالصين تتحدّث عنهما الآية الكريمة. إنّ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الّذى جعل لنا اللّيل لباساً بظلامه، وكأنّنا نرتدى سواده بعد أن نتخفّف عادةً من ثيابنا استعداداً للنّوم والرّاحة. والله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الّذى جعل لنا اللّيل راحةً لأبداننا بعد الكدّ في النّهار والكدح. والله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له هو الّذى جعل النّهار نشوراً لأبداننا وحياةً ويقظةً بعد النّوم وهو أخو الموت، وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿الله يتوفىّ الأنفس حين موتها والّتى لم تمت في منامها فيمسك الّتى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجلٍ مسمّى. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده الّذى فعل كلّ ذلك ويفعل، فهو وحده المستحقّ لأن يعبد دون سواه. وإذا كان الموت واعظاً وما أكبره من واعظ، وكان النّوم موتاً أصغر، فمعنى ذلك أنّ كلّ واحد منّا كأنّه يموت ويُنْشر بعدد مرّات نومه واستيقاظه، إلى أن تكون بإذن الله تعالى النّومة الأخيرة، أعنى الموت الّذى يمسك الله تعالى فيه نفس الشخص الّذى قضى عليه الموت. وكفى بالموت الأصغر، أعنى النّوم، دليلاً على الموت الأكبر وواعظاً.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾

وهو الّذى أرسل الرّياح : الملقحة[2].

---

(١) سورة الزّمر ٤٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

بُشْراً بين يدي رحمته : بُشْراً، بسكون الشّين، مخفّف بُشُراً، بضمّ الشّين. وبُشُراً، بضّم الشّين، جمع بَشور، بفتح الباء[1] والبَشور من الرّياح الّتى تبشّر بالمطر[2] والمبشّرات : الرّياح الّتى تهبّ بالسّحاب وتبشّر بالغيث[3] قال عزّ من قائل[4] : ﴿ومن آياته أن يرسل الرّياح مبشّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾ فالله تعالى يرسل الرّياح مبشّراتٍ بمجيء السّحاب بعدها، والرّياح أنواعٌ، في صفاتٍ كثيرةٍ من التّسخير. فمنها ما يثير السّحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه. ومنها ما يكون بين يدي السّحاب مبشّراً، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ[5] الأرض، ومنها ما يلقح السّحاب[6].

ماءً طهورا : الطّهور الطّاهر في نفسه المطهّر لغيره[7].

لنحيي به بلدةً ميتا : يعنى أرضاً قَحِطَةً[8] لا تنبت، وقال : ﴿بلدةً ميتاً﴾ ولم يقل ميتة، لأنّه أريد بذلك لنحيي به موضعاً ومكاناً ميتا[9].

ونسقيه : العرب تقول إذا سقت الرّجل ماءً شَرِبه أو لبناً أو غيره سقيته، بغير ألف، إذا كان لسقيه. وإذا جعلوا له ماءً لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته

---

(١) لسان العرب : «بشر».

(٢) المعجم الوسيط : «بشر» ١/ ٥٨.

(٣) لسان العرب : «بشر».

(٤) سورة الرّوم ٤٦.

(٥) يَقُمّ الأرض : أي يكنسها.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ١٢٣.

(٧) المعجم الوسيط : «طهر» ٢/ ٥٦٩.

(٨) القَحِطَة : الّتى أصيبت بالقَحْط بمعنى يبس الأرض بسبب احتباس المطر.

(٩) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

وأسقيت أرضه وماشيته. وكذلك إذا استسقت له قالوا : أسقيته واستسقيته[1].

وأناسيّ كثيرا : يعنى بالأناسيّ جَمْع إنسان. وجُمِعَ أناسى فجعل الياء عوضاً من النّونِ الّتى في إنسان. وقد يجمع إنسان أناسين كما يجمع النَّشْيان نشايين[2] فإن قيل : أناسيّ جمعٌ واحده إنسيّ فهو مذهبٌ أيضاً محكي[3].

الله تعالى هو الّذى أرسل الرّياح مبشّراتٍ بين يدي رحمته عزّ وجلّ بإنزال المطر. والله تعالى أنزل من السّماءً ماءً طهوراً، طاهراً في نفسه مطهراً لغيره. وهذا الماء الطّهور أنزله الله تعالى من السّحاب ليحيى به بلداً مَيْتاً وأرضاً أصابها القحط بسبب احتباس المطر، وليمكّن الله تعالى مِنْ شرب الماء والانتفاع به واستعماله الكثير ممّن خلقه الله تعالى من الأنعام والبهائم، ومن النّاس.

وحينما تقدّم الآية الكريمة في الذّكر الأنعام وتؤخّر الأناسيّ كأنّها تنبّه إلى أنّ الأنعام تستفيد من الماء بمجرّد نزوله من السّحاب، في حين يحتاج النّاس إلى معالجة الماء حتّى يصبح صالحاً لأن يشربه الإنسان وينتفع به بطريقٍ مباشر. ثمّ إنّ كلّ خيرٍ تناله الأنعام يعود نفعه على الإنسان.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/ ١٦.

(٢) النّشوان والنّشيان على المعاقبة : السّكران في أوّل أمره. انظر اللّسان : «نشأ» والمعجم الوسيط : «نشا» ٢/ ٩٢٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٤.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾

اختلف العلماء بشأن الآية الكريمة الأولى، فذهب فريقٌ منهم إلى أنّها تتحدّث عن المطر وبالتّالى فالآية الكريمة لاحقةٌ بالآيتين الكريمتين السّابقتين، وذهب فريقٌ آخر إلى أنّها تتحدّث عن القرآن الكريم، على الرّغم من كون القرآن الكريم لم تأت الإشارة إليه قريباً من ذى قبل، ولكنّ معاني الآية الكريمة أكثر لصوقاً بالقرآن الكريم منها بالمطر. وسبق لنا أن وقفنا مليّاً عند هذه الآية الكريمة في كتابنا : «تأملات في سورة الفرقان» الّذى كتبت مقدّمته يوم الجمعة ١٣/٦/١٣٩٦هـ. وقد انتهينا إلى أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن القرآن الكريم، ورجّحنا أنّ الضّمير من جملة : ﴿صرّفناه﴾ يعود إلى القرآن الكريم. وثمّة أسبابٌ وراء هذا الرّأي الّذى لا نزال نرتئيه، وهذه هي الأسباب بإيجاز[1].

١ ـ حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية وبين المطر من ناحيةٍ أخرى، من حيث القدرة الأكبر والأسهل على التّذكير فإنّا ننتهى إلى أنّ ذلك من نصيب القرآن الكريم.

٢ ـ حينما نقارن بين القرآن الكريم من ناحية وبين المطر من ناحيةٍ أخرى من حيث القابليّة الأكثر للتّصريف وبالتّالى التّذكير، فإنّا ننتهى إلى أنّ ذلك من نصيب

---

(١) انظر تأملات في سورة الفرقان ١٦٥ـ١٧٠ مكّة المكرّمة الطّبعة الثّانية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

القرآن الكريم. وبهذه المناسبة نقرّر أنّه ليس ثمّة إشارةٌ واحدةٌ في القرآن الكريم إلى تصريف المطر، بينما الإشاراتُ كثيرةٌ إلى تصريف الله تعالى الآيات، ومنها ما جاء فيه النّصّ الصّريح على القرآن الكريم، كما جاء فيه كذلك التّذييل الّذى جاء في آية سورة الفرقان. قال تعالى[1] : ﴿ ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثلٍ فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا﴾ وقال تعالى[2] : ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكّروا وما يزيدهم إلاّ نفورا﴾ وقال تعالى[3] : ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتقون أو يُحدِث لهم ذكرا﴾.

٣ ـ التّحوّل من المحسوس إلى المعنويّ، لوجود قرينة تهيّء لذلك، مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم. ففي سورة النّحل الكريمة ، على سبيل المثال، يتمّ التّحول من لفظة سبيل المحسوسة المتعدّدة حقيقة، والّتى تسير فيها الأنعام، إلى سبيل الهدى الواحد الّتى يهدى الله تعالى إليها من يشاء من عباده. قال تعالى[4] : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً. ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السّبيل ومنها جائرٌ. ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ إنّ الخيل والبغال والحمير حينما نركبها أو نتّخذها زينةً تسير في سبلٍ متعدّدة. وعلى الله تعالى بيان الطّريق المستقيم، وسبيل الهدى الواحدة الموصلة إلى جنّات النّعيم. وفي سورة الأعراف الكريمة يتمّ التّحوّل من اللّباس الّذى يوارى السّوءات ولباس الزّينة، وهما محسوسان، إلى لباس التّقوى الّذى هو خيرٌ من اللّباسين السّابقين. قال تعالى[5] : ﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً. ولباس

---

(١) سورة الإسراء ٨٩.

(٢) سورة الإسراء ٤١.

(٣) سورة طه ١١٣.

(٤) سورة النّحل ٨و٩.

(٥) سورة الأعراف ٢٦.

التّقوى ذلك خير. ذلك من آيات الله لعلّهم يذكّرون﴾ وفي سورة البقرة الكريمة يتمّ التّحوّل من الأمر بالتّزوّد بالزّاد في أثناء السّفر لأداء الحجّ، إلى الأمر بالتّزوّد بالتّقوى في أثناء السّفر إلى الله تعالى. قال عزّ من قائل[1] : ﴿الحجّ أشهرٌ معلومات. فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ. وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله. وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى. واتّقون يا أولى الألباب﴾ وبشأن آيات سورة الفرقان الكريمة يتمّ التّحول من الماء الطهور إلى القرآن الكريم بجامع النّزول من السّماء في كلٍّ منهما.

٤ ـ القرآن الكريم أحد موضوعات سورة الفرقان الكريمة، فالآية الكريمة إحدى آيات هذا الموضوع في السّورة الكريمة، لقدرة القرآن الكريم الفائقة على تذكير النّاس وهدايتهم بأكثر من قدرة الماء النّازل من السّحاب من ناحية، ولإصرار النّاس الكافرين على الإعراض عن القرآن الكريم من ناحيةٍ أخرى. وسبق أن عرفنا أنّ التّذييل في الآية الكريمة : ﴿فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا﴾ هو الّذى يجيء في الآية الكريمة التّاسعة والثّمانين من سورة الإسراء. قال تعالى : ﴿ولقد صرّفنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مَثَلٍ فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا﴾.

٥ ـ أجمع العلماء على أن الضّمير في القول خطاباً للمصطفى ﷺ : ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ يعود على القرآن الكريم الّذى لم يجر له ذكرٌ بصريح اللّفظ. وإنّ الشّيء نفسه يصحّ أن يقال بشأن القول : ﴿ولقد صرّفناه بينهم﴾ وكلٌّ من الضّميرين يجيء في آية من الآيات الثّلاث الكريمات الّتى تتحدّث في موضوعٍ واحد، هو القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى على محمّدٍ ﷺ.

٦ ـ الآيات الكريمات الثّلاث الّتى نحن بصددها تدور بمعانيها حول معانى أولى آيات السّورة الكريمة على جهة الخصوص. وموضوع الآية الكريمة الأولى القرآن الكريم والرّسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه. قال تعالى : ﴿تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾.

---

(١) سورة البقرة ١٩٧.

٧ ـ عودة الضّمير في قوله تعالى : ﴿ولقد صرّفناه بينهم﴾ إلى القرآن الكريم تشدّ الآية الكريمة الّتى فيها هذا القول إلى الآيتين الكريمتين التّاليتين شدّا وثيقاً. ويتّضح ذلك من تفسير الايات الكريمات الثّلاث.

إنّ ربّ العزّة والجلال يبيّن أنّه صرّف في القرآن ونوّع من ضروب القول كالوعد والوعيد والقصص والأمثال والأحكام وما إلى ذلك ليتذكّر النّاس ويتّعظوا، فأبى أكثر النّاس إلاّ كفورا وصدودا. ولو شئنا يا محمّد لبعثنا في كلّ قريةٍ نذيرا، ولكنّا لم نشأ ذلك، فأنت يا محمّد خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وأرسلناك للعالمين، فلا تطع يا محمّد أحداً من الكافرين، وجاهدهم بهذا الكتاب العزيز جهاداً كبيراً، فالقرآن الكريم جيشك الأكبر وسلاحك الأمضى.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾

مرج البحرين : أرسلهما متجاورين(١).
هذا عذبٌ فرات : الفرات الشّديد العذوبة(٢).
وهذا ملحٌ : مرّ(٣).
أجاج : شديد الملوحة(٤).
وجعل بينهما برزخاً : يعنى حاجزاً يمنع كلّ واحدٍ منهما من إفساد

(١) الجلالين وتفسير الطّبرى ٢٧/ ٧٥.
(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٦.
(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٦.
(٤) الجلالين.

الآخـر[1].

وحجراً محجـورا : وجعل كلّ واحد منهما حراماً محـرَّماً على صاحبه أن يغيّره ويفسده[2] ويقـول الزّمخـشريّ في الكشّـاف[3] : «فـإن قلت : وحـجـراً محجورا﴾ ما معناه؟ قلت : هي الكلمة الّتى يقـولها المتعوذ وقد فسّرناها[4] وهي ههنا واقعةٌ على سبيل المجاز، كأنّ كلّ واحد من البحرين يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجورا، كما قال : ﴿لا يبغيان﴾[5] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجـة. فانتفـاء البغي ثمّة كـالتّعوذ ههنا. جـعل كلّ واحد منهمـا في صورة الباغي على صاحبـه فهو يتعوّذ منه، وهي من أحسن الاستـعارات وأشهدها على البلاغة».

الله سـبحـانه تعـالى هو الّذى أرسل وأجـرى البحـرين، هذا حلوٌ شـديد العذوبة متحرّكٌ مرسلٌ في هيئة الأنهـار والعيون، وهذا مرٌّ شديد الملوحة متحرّكٌ في موضعـه، مقيّدٌ في مكانه، في هيئـة البحار والمحيطات، يقدّم رجـلاً في هيئة المدّ، ويؤخّر أخرى في هيئة الجزر. وفي حركة الماء الحلو وسكون الماء المِلْح صلاح البلاد والعباد. ويلاحظ أنّ الماء العذب الفرات قليل، وأنّ الماء الملح الأجاج كثير، ولهذا كان الماء العذب الفرات هو المتحرّك تجاه الماء الملح الأجاج، لأنّ الماء العذب الفرات لا يفسد الماء الملح الأجاج، ولكن يصلحه، ولو كان الماء الملح الأجاج هو المتحرّك لأفـسد بكثرته الماء العذب الفرات لقلّتـه. بل إنّ الماء العذب الفرات الّذى يصب في الماء المِلْح يصلحه ويجعل نسبة ملوحته معتدلةً وملائمة، بدليل الشّكوى

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٦.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٦.

(٣) ٢/ ٤١٢.

(٤) في أثناء تفسير الآية الكريمة الثّانية والعشرين.

(٥) الآية الكريمة العشرون من سورة الرّحمن.

الأخيرة الّتي أعلنتها الأمم المطلّة على بعض البحار من ارتفاع نسبة الملوحة بسبب حجب مياه الأنهار والبحيرات ومنعها من أن تصبّ في الماء المِلْح.

ونحن إذا نظرنا إلى الأنهار والبحيرات وما إليهما نجدها تتّجه جميعاً إلى الماء المِلْح. وفي رحلتها ينفع الله تعالى بها البلاد والعباد، إلى أن يلتقي الماء العذب الفرات المتحرّك، بالماء الملح الأجاج المتحيّر. وفي ذلك الالتقاء النّفع، ولذّة العين، وبهجة النّفس، وسرور الفؤاد. وإنّ انحدار الكرة الأرضيّة المقدّر المضبوط، يجعل الماء عادةً ينساب، وفي ذلك نفع البلاد والعباد، لأنّ الانحدار لو كان شديداً لكانت الأماكن كلّها شلاّلات، ولقلّ النّفع، ولاتّجه الماء دفعةً واحدةً إلى الماء المِلْح، وفي ذلك هلاك الحرث والنّسل، وفساد البلاد والعباد.

لقد جعل الله تعالى الحكيم العليم من انحدار الأرض المقدّر المضبوط حاجزاً يمنع كلاًّ من البحرين أن يبغي على الآخر ويفسده. وإلى هذه النّعم جاءت الإشارة في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّمل[1]: ﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً. أ إلهٌ مع الله. بل أكثرهم لا يعلمون﴾ وفي قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الرّحمن[2]: ﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخٌ لا يبغيان. فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان﴾ فالله تعالى أرسل البحرين العذب الفرات والملح الأجاج[3] يلتقيان حيث شاء الله تعالى حينما يصبّ الماء العذب المتحرّك في الماء المِلْح السّاكن. وبين البحرين حاجزٌ بيد القدرة الإلهيّة في هيئة الانحدار المقدّر المضبوط للأرض، وبالتّالي لا يبغي أحد البحرين على الآخر. إنّ الإنس والجنّ ينبغي أن يذكروا ويشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه، وألاّ ينسوا تلك النّعم والآلاء وينكروا.

---

(١) الآية ٦١.

(٢) الآيات ١٩-٢١.

(٣) الجلالين وتفسير الطّبري ٢٧/ ٧٥.

وإنّ هذين البحرين اللّذين جعل الله تعالى بينهما حاجزاً، وجعل كلّ واحدٍ منهما حراماً محرَّماً على صاحبه أن يغيّره ويفسده، كأنّ كلاً منهما يتعوّذ من صاحبه ويقول له : حجراً محجورا، وذلك على غرار القول على ألسنة المشركين يوم القيامة حين يرون ملائكة العذاب على نحو ما مرّ بنا في الآية الكريمة الثّانية والعشرين : ﴿ويقولون حجراً محجورا﴾.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

بعد حديث السّياق عن الماء النّازل من السّماء، وهو عماد الغذاء للأبدان، والحديث عن القرآن الكريم النّازل من السّماء، وهو عماد الغذاء للأرواح، تمّ التّحوّل إلى الحديث عن الإنسان الّذى سخّر الله تعالى له ما فى السّماوات وما في الأرض، وأرسل من أجله محمّداً ﷺ خير الأنام، وأنزل القرآن الكريم خير الكلام.

وإنّ الحديث عن خلق الله تعالى الإنسان يتمشّى مع الجوّ العام للآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن أنواعٍ من المياه، من زاوية خلق الله تعالى من الماء الّذى يخرج من بين الصّلب والتّرائب، بشراً، ذكراً وأنثى. وقد جعل الله سبحانه وتعالى ذلك البشر نسباً، من زاوية الذّكورة في المقام الأوّل، وبذلك تأخذ هذه السّلسلة بُعْدَها الطّوليّ أصلا، كما جعله سبحانه وتعالى صهرا، من زاوية الأنوثة في المقام الأوّل، وبذلك تأخذ هذه السّلسلة بُعْدَها العرضيّ أصلاً. وكان ربّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان قديراً لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء. والآية الكريمة تشير إلى إحدى الصّور الأربع الّتى خلق الله سبحانه وتعالى فيها الإنسان. وهذه الصّورة يتمّ فيها الخلق بواسطة الزّوجين، الذّكر والأنثى، وهي الصّورة

الغالبة. ومّما جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾ وأمّا صور الخلق الثّلاث فيمثّلها آدم عليه السّلام الّذى خلقه الله تعالى من طين، فليس ثمّة أنثى ولا ذكر، وحوّاء عليها السّلام الّتى خلقها الله من ضِلَع آدم عليه السّلام، فثمّة ذكرٌ ولا أنثى، وعيسى عليه السّلام الّذى خلقه الله تعالى من أنثى ولا ذكر.

إنّ الله تعالى هو وحده لا شريك له القدير على فعل كلّ ذلك.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

وكان الكافر على ربّه ظهيراً : معيناً للشّيطان على الرّحمن[2] مظاهراً له على معصيته[3].

على الرّغم من كلّ الآيات الدّالّة على القدرة المطلقة للذّات العليّة فإنّ المشركين لا يفردون الله تعالى بالعبادة، بل يعبدون من دون الله تعالى ما لا ينفعهم لو عبدوه ولا يضرّهم لو أهملوه. وكان الكافر دائماً وأبداً معيناً للشّيطان الرّجيم على الرّحمن الرّحيم، مظاهراً له على معصية الله تعالى الربّ البرّ الرّحيم.

---

(١) سورة الرّوم ٢١.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : ظهر» ٢/ ٤١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٧.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾

إلاّ من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلا : لكن من شاء منكم اتّخذ إلى ربّه سبيلاً، طريقاً، بإنفاقه من ماله في سبيله وفيما يقرّبه إليه من الصّدقة والنّفقة في جهاد عدوّه وغير ذلك من سبل الخير(١).

وسبّح بحمده : وسبّح متلبّساً بحمده أي قل سبحان الله والحمد لله(٢) ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : سبحانك اللّهمّ ربّنا وبحمدك(٣).

وكفى به بذنوب عباده خبيرا : وحسبك بالحيّ الّذى لا يموت خابراً بذنوب خلقه فإنّه لا يخفى عليه شيءٌ منها، وهو محصٍ جميعها عليهم حتّى يجازيهم بها يوم القيامة(٤).

ثمّ استوى على العرش : العرش في اللّغة سرير المُلْك(٥) وعرش الله ما لا

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٨.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٢٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٨.

(٥) الجلالين.

يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم[1].

الرّحمن فاسأل به خبيرا : فاسأل يا محمّد بالرّحمن خبيراً بخلقه فإنّه خالق كلّ شيءٍ ولا يخفى عليه ما خلق[2].

هجر الكافرون كلاً من القرآن الكريم والرّسول العظيم ﷺ، وما كان لهم أن يفعلوا شيئاً من ذلك. والآيات الكريمات تأخذ بسببٍ من تسليته وتثبيت فؤاده ﷺ. إنّ على الرّسول الكريم البلاغ وحده، ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد، فالله تعالى لم يرسل محمّداً ﷺ إلاّ مبشّراً المؤمنين بالجنّة، ومنذراً الكافرين بالنّار. ويلاحظ أنّ السّورة الكريمة تتحدّث، ابتداءً بهذه الآية الكريمة، في التّبشير والإنذار، وقد كان الغالب عليها الإنذار، تمشّياً مع الآية الكريمة الأولى من السّورة الكريمة، تلك الآية الكريمة الّتى جاء فيها النّصّ على الإنذار وحده. وسيكون التّبشير غالباً على نهاية السّورة الكريمة الّتي تتحدّث عن عباد الرّحمن في قسمها الأخير.

ويلقّن السّياق المصطفى ﷺ ما يقوله للنّاس أجمعين. إنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يسأل النّاس أجراً مقابل دعوتهم إلى الله تعالى. لكن من أراد أن يتّخذ إلى ربّه جلّ وعلا سبيلاً موصلاً إلى رضوانه جلّ وعلا بالإنفاق في سبيله جلّ وعلا فإنّه عليه الصّلاة والسّلام يحثّه على ذلك ويعينه.

ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يتوكّل على الله تعالى الحيّ الّذى لا يموت، وأن يسبّحَ بحمده عزّ وجلّ بقول : سبحان الله والحمد لله، وبسائر الذّكر من تهليلٍ وتكبير وما إلى ذلك، وحسبك بالله تعالى الحيّ الّذى لا يموت خبيراً بذنوب عباده، محيطاً بها، معاقباً عليها. الباء حرف جرّ زائد. والهاء فاعل كفى. بذنوب متعلّق بخبيرا، وهو حالٌ منصوبٌ من فاعل كفى[3].

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عرش» ٢/ ٤٢٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٩.

(٣) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٣٠٢و٣٠٣.

إنّ الله سبحانه تعالى الخبير ببواطن الأمور كظاهرها، هو الّذى خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، الله تعالى أعلم بحقيقتها، لأنّه لم يكن ثمّة شمسٌ أصلاً، ولو شاء جلّ وعلا خلق الكون على الفور لفعل، ولكنّه جلّ وعلا أراد أن يعلّم عباده الأناةَ والصّبر. وبعد أن خلق الله سبحانه وتعالى السّماوات والأرض وما بينهما استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته. والعرش في اللّغة سرير الملك. والاستواء معلومٌ والكيف مجهول. إنّ الّذى فعل كلّ ذلك هو الله تعالى رحمن الدّنيا والآخرة، فاسأل يا محمّد بالرّحمن خبيراً بخلقه، فإنّه جلّ وعلا خالق كلّ شيءٍ ومدبّره. وكما كان له جلّ وعلا الخلق كان له الأمر. فينبغى أن يُفْرد عزّ وجلّ بالعبادة وحده لا شريك له. ورغم كلّ هذه الآيات والنّذر يصرّ المشركون على شركهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

وما الرّحمن : يجوز أن يكون سؤالاً عن المسمّى به لأنهم ما كانوا يعرفونه بهذا الاسم. والسّؤال عن المجهول بما[1].

أنسجد لما تأمرنا : أنسجد نحن يا محمّد لما تأمرنا أنت أن نسجد له[2].

نفورا : فرارا[3].

حينما طلب المصطفى ﷺ من كفّار مكّة أن يسجدوا لله تعالى الرّحمن الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ تظاهروا بأنّهم لا يعرفون الرّحمن، لذا استعملوا ما

(١) الكشّاف ٢/ ٤١٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٩.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ١٩.

الّتى يسأل بهـا عن المجهول : ﴿قالوا وما الـرّحمن﴾ ومن غير المعقـول أن يجهل كفّار مكّة أنّ الرّحـمن من صفات الله تعالى، بل عظيم صفـاته جلّ وعلا. وكان سؤالهم عن المجهول مطيّةً لسؤالهم الإنكاريّ خطاباً للمصطفى ﷺ : ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ إنّهم في سؤالهم الإنكاريّ يعبّرون عن اسـتنكافهم واستكبارهم أن يأمرهم النّبيّ ﷺ بالسّجود لله تعالى وحده لا شريك له. ويردف المشركون القول بفعلهم. إنّ الأمر بالسّجود لله تعالى يزيدهم نفوراً بقلوبهم، وفِراراً بأجسادهم.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

بروجاً : البـروج القصور، الواحـد بُرْج، وبه سُمّي بروج النّجـوم لمنازلها المختصّة بها[1] والبروج منازل الكواكب السّـبعة السّـيّارة [2] وهي اثنا عشـر برجاً. فمـسير القمـر في كلّ برجٍ منها يومان وثلث، فـذلك ثمانيةٌ وعـشرون منزلاً، ثمّ يستتـر ليلتين. ومسير الشّمس في كلّ برجٍ منهـا شهر[3] والبروج هـي، الحَمَل، والثّور، والجوزاء، والسّرطان، والأسد، والسّنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدّلو، والحوت، سـميّت بالبروج الّتى هي القصور العاليـة لأنّها لهذه

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «برج» ١/ ٥٢.

(٢) الكشّاف ٢/ ٤١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٣٠/ ٨١.

الكواكب كالمنازل لسكّانها. واشتقاق البرج من التّبرّج لظهوره[1] والكواكب السّبعة السّيّارة المرّيخ، وله الحَمَل والعقرب. والزُّهَرة، ولها الثّور والميزان. وعطارد، وله الجوزاء والسّنبلة. والقمر، وله السّرطان. والشّمس، ولها الأسد. والمشترى، وله القوس والحوت. وزحل، وله الجدي والدّلو[2].

سراجاً : السّراج الشّمس[3].

تقدّس الله تعالى وتعاظم، وتكاثر خيره جلّ وعلا وتنامى الّذى جعل في السّماء بروجاً ومنازل تنزلها الكواكب السّبعة السّيّارة، ومنها الشّمس والقمر، وجعل فيها الشّمس المضيئة المولّدة للطّاقة، والقمر المنير الّذى يعكس ضياء الشمس نورا.

وَهُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

خلفة : كلّ واحدٍ منهما يخلف صاحبه. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا[4].

---

(١) الكشّاف ٢/ ٤١٤.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٠.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٠.

لمن أراد أن يذّكّر : لمن أراد أن يذّكّر أمر الله فينيب إلى الحق[1].

أو أراد شكورا : أو أراد شكر نعمة الله الّتى أنعمها عليه في اختلاف اللّيل والنّهار[2].

يعود السّياق إلى ذكر اللّيل والنّهار والتّنبيه إلى النّعمة العظمى في اختلافهما وما يترتّب على ذلك من نفعٍ عظيم للعباد. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى جعل اللّيل والنّهار يخلف كلٌّ منهما الآخر، هذا إلى اختلاف كلٍّ منهما في الصّفات، ممّا يتحقّق به النّفع للعباد. إنّ نعمة اختلاف اللّيل والنّهار العظيمة تحمل كلّ صحيح العقل سليم الصّدر على أن يتذكّر هذه النّعمة ويعتبر ويبادر إلى شكر الله تعالى الّذى أنعم بها.

ومن البيّن أنّ التّذكّر يكون أوّلاً، ويترتّب عليه الشّكر لله تعالى المنعم المتفضّل.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢١.

(٥)

(نعـوت عباد الرّحمن)

الآيات (٦٣–٧٧)

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾

الّذين يمشون على الأرض هوناً : بالحلم والسّكينة والوقار غير مستكبرين ولا متجبّرين ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله[١].

الجاهلون : الجاهلون بالله[٢] السّفهاء[٣].

قالوا سلاماً : أجابوهم بالمعروف من القول والسّداد من الخطاب[٤] يسلمون فيه من الإثم[٥].

هؤلاء العباد الصّالحون يضافون للرّحمن إضافة تشريف. وأوّل نعت لهؤلاء العباد أنّهم يمشون على الأرض مشياً سهلاً هيّناً ليّناً فطريّا بعيداً عن تصنّع التّمارض وتكلّف التّماوت من ناحية، وعن الفخر بضرب الأرض بالعقبين، وعن الاختيال بالمضي على رءوس أصابع القدمين، من ناحيةٍ أخرى. إنّهم يمشون على الأرض مشياً طبيعياً يتّسم به الأتقياء الّذين يتّخذون المشي على الأرض وسيلةً ضروريّةً لغاياتهم السّامية وأهدافهم النّبيلة. وإن لحرف الجرّ : «على» دوراً بليغاً في الدّلالة على أنّ مشي عباد الرّحمن وسيلةٌ ضروريّةٌ لابدّ منها. ويتجلّى الدّور البليغ لحرف

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٢.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٣١.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٢.

(٥) الجلالين.

الجرّ على في الدّلالة على هذا المعنى السّامي حينما نتحوّل إلى حرف جرٍّ آخر، له هو الآخر دورٌ بليغٌ آخر، في الدّلالة على المشي المنهيّ عنه، لأنّه مشيٌ بغرض المشي ذاته. جاء في سورة الإسراء، ضمن آيات الحكمة[1] قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً. إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ إنّ الّذى يضرب الأرض بعقبيه وكأنّه يريد أن يخرقها حينما يمشي هو الفخور. وإنّ الّذى يمشي على رءوس أصابعه وكأنّه يريد أن يبلغ الجبال طولاً هو المختال. وقد قال عزّ من قائل في سورة النّساء[3] : ﴿إنّ الله لا يحبّ من كان مختالاً فخورا﴾ ويجمع بين النّوعين المرغوب عنهما من المشي باعث المرح المنهيّ عنه، لأنّه يجعل المشي هدفاً في ذاته. وقد دلّ على كونه هدفاً حرف الجرّ : «في» : ﴿ولا تمش في الأرض مرحا﴾ وهكذا يتبيّن أنّ عباد الرّحمن يمشون على الأرض لأهدافهم السّاميّة، وليس في الأرض لذات المشي.

وثاني نعتٍ لعباد الرّحمن أنّهم إذا خاطبهم الجاهلون بالله والحمقى السّفهاء قالوا سلاماً من القول، يسلمون به من الإثم، وتسلم به أعراضهم، وأجابوهم بالمعروف من القول، والسّداد من الخطاب.

ومن البيّن أنّ المشي يتعلّق بالسّلوك، والقول يتعلّق بالمعاملة. وإنّ السّموّ في مشي عباد الرّحمن وقولهم دليلٌ على سموّ خلقهم. وكأنّ الآية الكريمة أومأت إلى خلق عباد الرّحمن العظيم بالإشارة إلى نعتين ظاهرين بطبعهما، مِنْ حُسْن سلوك عباد الرّحمن وحسن معاملة الآخرين، دالّيْن على غيرهما من السّلوك والتّعامل الحسنين من ناحية، ومن ناحية أخرى على المجهود الكبير الّذى بذله أولئك العباد حتّى بلغوا بخلقهم العظيم مرتبة التّقوى بفضل الله تعالى.

وكيف لا يكون كلٌّ من خلق عباد الرّحمن وسلوكهم ومعاملتهم الآخرين

---

(١) سورة الإسراء ٢٢-٣٩.

(٢) الآية ٣٧.

(٣) الآية ٣٦.

عظيماً، وهم الّذين يضافون إضافة تشريف إلى «الرّحمن» عظيم صفات الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

ويتحوّل السّياق إلى الحديث في بعض صفات عباد الرّحمن.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾

سجّداً : جمع ساجد[1].

وقياماً : جمع قائم، كما الصّيام جمع صائم[2].

إنّ عباد الرّحمن يقضون جزءاً من الّليل مصلّين لله تعالى ربّ العالمين، راكعين ساجدين قاعدين قائمين. والمعروف أنّ الصّلاة عماد الدّين، وأنّ إقامة النّوافل دليلٌ على إقامة الفرائض. وما أجمل النّعوت الّتى يتحلّى بها مقيمو الصّلاة، والّتى تفهم من مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة العنكبوت[3] : ﴿اُتلُ ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصّلاة. إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولذكر الله أكبر. والله يعلم ما تصنعون﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا في سورة الذّاريات[4] : ﴿إنّ المتّقين في جنّات وعيون. آخذين ما آتاهم ربّهم. إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلاً من الّليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفي أموالهم حقٌّ للسّائل والمحروم﴾.

ما أجمل إقامة عباد الرّحمن صلاة النفل ليلاً، دليلاً على إقامة صلاة الفرض بكامل شروطها وأركانها.

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٣.

(٣) الآية ٤٥.

(٤) الآيات ١٥-١٩.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾

غراما : ملحّاً دائماً لازماً غير مفارقٍ مَنْ عُذِّب به من الكفّار ومهلكاً له[1] الغين والرّاء والميم أصلٌ يدلّ على ملازمة وملازّة. من ذلك الغريم، سمّي غريماً للزومه وإلحاحه. والغرام : العذاب اللاّزم[2].

مستقراً ومقاما : موضع استقرارٍ وإقامة[3].

إنّ عباد الرّحمن الّذين يقيمون الصّلاة، فرضها ونفلها، دليلاً على أدائهم على أحسن وجه سائر الأركان والواجبات والنّوافل، يعلمون يقيناً أنّ دخولهم الجنّة إنّما يكون بفضل الله تعالى وحده لا شريك له، الّذى يتفضّل بقبول الأعمال الصّالحة الّتى أريد بها وجهه الكريم جلّ وعلا. لكلّ ذلك يشفق عباد الرّحمن ألاّ يتقبّل الله تعالى أعمالهم الصّالحة، ولا يدخلهم الجنّة، ومن ثَمَّ هم يدعون الله تعالى من أعماقهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم. إنّ عذاب جهنّم الأليم العظيم كان دائماً. وأبداً لازماً غير مفارق، تماماً كما لا يفارق الغريمُ غريمه[4] وصاحبُ الدّين المدين. وإنّ جهنم ساءت مكان استقرار ومحلّ إقامة. وحينما يسأل عباد الرّحمن ربّهم جلّ وعلا أن يصرف عنهم عذاب جهنم الملازم، هم يسألون الله ضمناً أن يدخلهم جنّات النّعيم. وإنّ دعاء عباد الرّحمن ربّهم جلّ وعلا أن يصرف عنهم عذاب جهنّم دليلٌ على حذرهم وعدم غفلتهم وعلمهم الأكيد

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٣.

(٢) معجم مقاييس اللّغة : «غرم» ٤/ ٤١٩.

(٣) الجلالين.

(٤) الغريم يقال لمن له الدّين ولمن عليه الدّين. مفردات الرّاغب الأصفهانى : «غرم» ٢/ ٤٦٦.

بحقيقة أقدارهم وتواضعهم وأنّ دخولهم الجنّة يتمّ إذا تغمّدهم الله تعالى برحمته. وإنّ هذه النّعوت من جنس مشي عباد الرّحمن على الأرض هوناً وقولهم للجاهلين السّفهاء قولاً يسلم به دينهم وعرضهم.

وإنّ هذه النّعوت تذكّرنا بمثل قوله تعالى في نعوت المؤمنين في سورة المؤمنون[1] : ﴿إنّ الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون. والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون. والّذين هم بربّهم لا يشركون. والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنّهم إلى ربّهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾.

وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟
لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

لم يسرفوا : السَّرَف المجاوزة في النّفقة الحدّ[2].

ولم يقتروا : الإقتار التّقصير عن الّذى لابدّ منه[3].

وكان بين ذلك قواما : معتدلاً لا مجاوزةً عن حدّ الله ولا تقصيراً عمّا فرضه الله، ولكن عدلاً بين ذلك على ما أباحه جلّ ثناؤه وأذن فيه ورخّص[4] والقَوام في كلام العرب بفتح القاف. وهو الشّيء بين الشّيئين.. تقول للمرأة المعتدلة الخَلْق : إنّها لحسنة القَوام في اعتدالها[5].

هذا النّعت في عباد الرّحمن يجمع بين كونه سلوكاً ومعاملة. إنّ الإنفاق

---

(١) الآيات ٥٧-٦١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٤.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٤.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٥.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٥.

على الّذات ضربٌ من السّلوك. وإنّ الإنفاق على الأهل ومن في حكمهم ضربٌ من المعاملة.

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تصف طريقة الإنفاق وتتجاوز الحديث عن الإنفاق، لأنّه حقيقةٌ مفروغٌ من وجودها لدى الأسوياء وإلاّ كان الشّخص متسوّلاً ومحتالاً وغير سويّ. إنّ عباد الرّحمن ينفقون كغيرهم من الأسوياء ولكنّهم يمتازون بأنّهم معتدلون في إنفاقهم. وينبغي أن نبيّن أنّ المراد بالإنفاق ما يدفعه المرء في مقابل معيشته الكريمة، من طعامٍ وشرابٍ وكساءٍ وسكنٍ وعلاجٍ وما إلى ذلك. إنّ هؤلاء العباد في إنفاقهم لا يسرفون ولا يبذّرون من ناحية، ولا يَقْتُرون ولا يبخلون من ناحيةٍ أخرى، ولكنّهم يسلكون الطّريق القَوام، والمذهب الوسط. وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا[1].

وهذا النّعت عمّقه قوله عزّ من قائل في آيتين كريمتين من آيات الحكمة في سورة الإسراء [2]: ﴿وآت ذا القربى حقّه والمسكين وابن السّبيل ولا تبذّر تبذيرا. إنّ المبذّرين كانوا إخوان الشّياطين وكان الشّيطان لربّه كفورا﴾ كما عمّقَه قوله تعالى في سورة الأعراف[3]: ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. إنّه لا يحبّ المسرفين﴾.

وكما كان ثمّة حثٌّ على الطّريق الوسط في الإنفاق كان ثمّة حثٌّ على الطّريق ذاته في الصّدقة والإنفاق في وجوه البرّ. جاء في سورة الأنعام[4] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وهو الّذى أنشأ جنّاتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ والنّخل والزّرع مختلفاً أُكُلُهُ والزّيتونَ والرّمّانَ متشابهاً وغير متشابه. كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقّه يوم حصاده ولا تسرفوا. إنّه لا يحبّ المسرفين﴾ وهذا سعد بن أبى

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٣.

(٢) سورة الإسراء ٢٦و٢٧.

(٣) الآية ٣١.

(٤) الآية ١٤١.

وقاص رضي الله تعالى عنه يريد أن يتصدّق بثلثي ماله وبالنّصف فلا يأذن له النّبيّ ﷺ فيريد أن يتصدّق بالثّلث فيأذن له النّبيّ ﷺ ومع ذلك يقول له : «الثّلث كبير. إنّك إن تركت ولدك أغنياء خيرٌ من أن تتركهم عالةً يتكفّفون النّاس. وإنّك لن تنفق نفقةً إلاّ أُجِرْت عليها، حتّى اللّقمةُ ترفعها إلى فى امرأتك»[1].

وإنّ نفي الإسراف والإقتار عن عباد الرّحمن مُنْعَطَفٌ لنفي الآيات الكريمات التّاليات عن عباد الرّحمن بعد ذلك مجموعةً من الصّفات المرغوب عنها والأشدّ سوءاً.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

إلاّ بالحقّ : إمّا بكفرٍ بالله بعد إسلامها، أو وزناً بعد إحصانها، أو قتل نفسٍ فتقتل بها[2].

أثاما : عقوبةً ونكالاً[3] وعذاباً. فسمّاه أثاماً لمّا كان من الأثام، وذلك كتسمية النّبات والشّحم ندىً لمّا كانا منه. والأثام والإثم اسم للأفعال المبطّئة عن

(١) صحيح البخارى ٨/ ١٨٧ وفتح البارى ١٢/ ١٤ حديث رقم ٦٧٣٣.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٢٦.

الثّواب، وجمعه آثام[1].

فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات : فأولئك يبدّل الله سيّئاتهم في الدّنيا حسنات لهم يوم القيامة[2].

فإنّه يتوب إلى الله متاباً : أي التّوبة التّامّة. وهو الجمع بين ترك القبيح وتحرّى الجميل[3] والتّوبة في الشّرع ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فَرَط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة. فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمُل شرائط التّوبة[4].

من نعوت عباد الرّحمن أنّهم لا يدعون مع الله تعالى إلهاً آخر ولا يشركون في العبادة مع الله تعالى سواه، وبذلك هم لا يرتكبون الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى، وقد قال عزّ من قائل[5] : ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وإنّ ابتداء الآية الكريمة بنفي الشّرك عن عباد الرّحمن وإثبات التّوحيد دليلٌ على أنّ قضيّة التّوحيد أهمّ القضايا.

ومن نعوت عباد الرّحمن كذلك أنّهم لا يقتلون النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: لا يحلّ دم امرىءٍ مسلمٍ يشهد ألاّ إله إلاّ الله وأنّى رسول الله إلاّ بإحدى ثلاث، النّفس بالنّفس، والثّيّب الزّانى، والمفارق لدينه التّارك للجماعة[6] فلا يحلّ قتل امرىءٍ مسلمٍ وإراقة دمه إلاّ بإحدى خصالٍ ثلاث. من قتل نَفْساً عَمْداً بغير حقٍ قُتِل بشرطه، والثّيّب هو المحصَن بالزّواج، فإذا زنى بعد إحصانٍ رُجِم بالحجارة

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «إثم» ١/ ١١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣٠.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «توب» ١/ ٩٩.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «توب» ١/ ٩٨.

(٥) سورة النّساء ٤٨ و١١٦.

(٦) صحيح البخارى ٩/ ٦ وفتح البارى ١٢/ ٢٠١ حديث رقم ٦٨٧٨.

حتّى الموت، والمفارق لدينه هو المرتدّ عن دين الرسلام، والعياذ بالله، إن لم يرجع إلى الإسلام[1].

ومن نعوت عباد الرّحمن أنّهم لا يزنون. وقد تبيّن أنّ حدّ الزّانى المتزوّج الرّجم بالحجارة حتّى الموت كما ثبت بالسّنّة القوليّة والفعليّة للمصطفى ﷺ. وأمّا الزّانى البِكر غير المتزوّج فقد جاء النّصّ على الحكم في حقّه في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّور :[2] ﴿الزّانية والزّانى فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين﴾.

وإنّ الحديث عن الزّنا بعد القتل دليلٌ على أنّ الزّنا، والعياذ بالله، ضربٌ من القتل. إنّه قتلٌ لماء الحياة، وقتلٌ للفضيلة، وقتلٌ للأسرة، وقتلٌ معنويّ لأولاد الزّنا، وربّما اقترن به قتلٌ فعليٌّ قبل الولادة بالإجهاض، وبعد الولادة بالتّخلّص من الجنين ولو برميه بالشّارع في وعاء الزّبالة فأكلته الكلاب والقطط وما إليهما، ومن عاش فهو غرضٌ لكلٍّ من القتلين المعنويّ والحسّيّ. وقد جاء في الحثّ على الطّهر والعفاف قول الحقّ جلّ وعلا[3] : ﴿وليستعفف الّذين لا يجدون نكاحاً حتّى يغنيهم الله من فضله﴾.

ويبيّن السّياق العذاب الأليم الّذى يستحقّه من يفعل أيّاً من هذه الذّنوب الكبار. إنّه يستحقّ العقاب والعذاب والنّكال، على غرار ما استحقّه القاتل عمداً من القتل قصاصاً كما بيّن السّياق. إنّه يستحقّ العذاب يوم القيامة، ويخلد في ذلك العذاب مهانا.

وإنّ ربّ العزّة والجلال التّوّاب الرّحيم يفتح باب التّوبة على مصراعيه لكلّ من تاب توبةً نصوحاً، وآمن بكلّ ما جاء به محمّد ﷺ عن ربّه جلّ وعلا، وعمل

---

(١) انظر فتح البارى ١٢/ ٢٠١و٢٠٢.

(٢) الآية ٢.

(٣) سورة النّور ٣٣.

صالحاً أراد به وجه ربّه الأعلى جلّ وعلا.

وقد عرفنا الشّروط الأربعة للتّوبة مِنْ ترك الذّنب، والنّدم على ارتكابه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة وبعمل الصّالحات.

إنّ أولئك الّذين يتوبون توبةً نصوحاً، ويؤمنون، ويعملون عملاً صالحاً يبدّل الله تعالى سيّآتهم في الدّنيا حسناتٍ في الآخرة. وكان الله تعالى دائماً وأبداً غفوراً رحيما.

إنّ من تاب وعمل صالحاً يتوب إلى الله تعالى متاباً صحيحاً متقبّلاً بإذن الله تعالى الّذى يقبل التّوبة عن عباده ويعفو عن السّيّئات ويعلم ما نفعل، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

روى الطّبرانى من حديث أبى المغيرة عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرّحمن بن جبير، عن أبى فروة ـ شَطْب ـ أنّه أتى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً عمل الذّنوب كلّها، ولم يترك حاجّةً ولا داجّة[1] فهل لي من توبة؟ فقال : أسلمت؟ فقال : نعم. قال : فافعل الخيرات واترك السّيّئات، فيجعلها الله لك خيرات كلّها. قال : وغَدَراتى وفَجَراتى؟ قال : نعم. قال : فما زال يكبّر حتّى توارى[2].

---

(١) الحاجّة مؤنّث الحاجّ إلى بيت الله تعالى الحرام، والدّاجّة مؤنّث الدّاجّ وهو التّاجر. انظر القاموس : «الحجّ» و: «دجّ» وكأنّ المراد ارتكاب كلّ الذّنوب.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٣٨ وانظر أسد الغابة لابن الأثير ٢/ ٣٩٩ : «شطب».

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

والّذين لا يشهدون الزّور : أصل الزّور تحسين الشّيء ووصفه بخلاف صفته حتّى يخيّل إلى من يسمعه أو يراه أنّه خلاف ما هو به[١] الزّاي والواو أصلٌ واحدٌ يدلّ على الميل والعدول[٢] من ذلك الزَّوَر، بفتح الواو : الميل. يقال : ازورّ عن كذا، أي مال عنه[٣] والبئر الزّوراء المائلة الحَفْر[٤] والزُّور، بضمّ الزّاي : الكذب، لأنّه مائلٌ عن طريقة الحقّ[٥] والزُّور : اللّغو والباطل[٦] وشهادة الزّور، وهي الكذب متعمّداً على غيره[٧].

وإذا مرّوا باللّغو : اللّغو في كلام العرب هو كلّ كلامٍ أو فعلٍ باطل لا حقيقة له ولا أصل أو ما يستقبح[٨] واللّغو من الكلام ما لا يُعْتَدّ به[٩] قيل المعنى إذا صادفوا أهل اللّغو لم يخوضوا معهم[١٠].

حينما ننظر إلى الصّفات السّيّئة السّابقة المنفيّة عن عباد الرّحمن وهي الشّرك

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣١.

(٢) معجم مقاييس اللّغة : «زور» ٣/ ٣٦.

(٣) معجم مقاييس اللّغة : «زور» ٣/ ٣٦.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «زور» ١/ ٢٨٧.

(٥) معجم مقاييس اللّغة : «زور» ٣/ ٣٦ ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «زور» ١/ ٢٨٧.

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ١٤٠.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ١٤٠.

(٨) تفسير الطّبري ١٩/ ٣٢.

(٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «لغا» ٢/ ٥٨٢.

(١٠) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «لغا» ٢/ ٥٨٢.

وقتل النّفس الّتى حرّم الله تعالى قتلها إلاّ بالحقّ والزّنا، نتبيّن أنّ الّذين ذهبوا إلى أنّ الزّور بمعنى الإدلاء بشهادة الزّور، قد نظروا إلى شهادة الزّور في ضوء كونها من الكبائر، لذا ألحقوها بتلك الصّفات السّيّئة والكبائر المنفيّة عن عباد الرّحمن. جاء في الصّحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا. قلنا : بلى يا رسول الله. قال : الشّرك بالله وعقوق الوالدين. وكان متّكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزّور، ألا وشهادة الزّور. فما زال يكرّرها حتّى قلنا : ليته سكت[1].

وحينما ننظر إلى عجز الآية الكريمة الّذى يقرّر أنّ عباد الرّحمن حينما يمرّون مضطرّين باللّغو أي الباطل وما لا حقيقة له من القول والفعل، نتبيّن أنّ الّذين ذهبوا إلى أنّ المراد بشهود الزّور مجالس الباطل من لهوٍ ولغوٍ وباطلٍ وكذب، قد تبيّنوا التّلاؤم بين عدم شهود عباد الرّحمن الزّور بالمعنى الّذى تبيّن، وبين مرور عباد الرّحمن باللّغو من القول أو الفعل مرور الكرام. لقد وجد عباد الرّحمن أنفسهم بالضّرورة في مثل ذلك الموقف الّذى يبغضونه فمرّوا كراما، وأعرضوا عن الخائضين بالباطل. وإنّ عدم شهود عباد الرّحمن مجال الزّور واللّهو، وإنّ مرورهم باللّغو مرور الكرام، من جنس نعت عباد الرّحمن بأنّهم يمشون على الأرض هوناً، وبأنّهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا الكلام الّذى هو أحسن فسلم دينهم وعرضهم.

وبهذا يتبيّن أنّ شهود الزّور بمعنى كلٍّ من شهادة الزّور وشهود كلّ باطل. وقد أدلى المشركون في الآية الكريمة الرّابعة من السّورة بشهادة الزّور. وهكذا يبدو التّرابط بين الآيات الكريمات وإن تباعدت.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٤٠.

وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾

لم يخرّوا عليها : معنى خرّ سقط سقوطاً يُسْمَع منه خرير. والخرير يقال لصوت الماء والرّيح وغير ذلك ممّا يسقط من علو[١].

تنفى الآية الكريمة عن عباد الرّحمن كلاًّ من الصّمم والعمى. وليس المراد أنّهم يسمعون فقط، ولكنّهم يسمعون ويعون. وليس المراد أنّهم يبصرون فقط، ولكنهم يبصرون ببصائرهم النّيّرة. إنّ الصُّمَّ العمي إذا ذكّروا بآيات الله تعالى أخذتهم العزّة بالإثم وازدوادوا صمماً إلى صممهم وعمىً إلى عماهم. أمّا عباد الرّحمن فإنّهم يسرّهم من يذكّرهم بآيات الله تعالى مربيّهم بنعمه وآلائه، لهذا هم يقبلون على تلك الآيات البيّنات بآذانٍ واعيةٍ، وعيونٍ راعية، وبصائر نيّرة.

ونستطيع أن نفهم أنّ عباد الرحمن يشملهم قول الحقّ جلّ وعلا في سورة السّجدة :[٢] ﴿إنّما يؤمن بآياتنا الّذين إذا ذكّروا بها خرّوا سجّداً وسبّحوا بحمد ربّهم وهم لا يستكبرون﴾ لقد كان خريرهم تسبيحاً بحمد الله تعالى[٣] وبذلك يكون عباد الرّحمن ملازمين لتلاوة القرآن الكريم في الصّلاة وفي غير الصّلاة، وكما يسجدون في مواضع سجود التّلاوة، هم يسجدون في الصّلوات، فرضها ونفلها. وإنّ حفظهم للصّلاة دليلٌ على حفظهم سائر العبادات. قال تعالى[٤] : ﴿وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين﴾.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خرّ» ١٩١.

(٢) الآية ١٥.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «خرّ» ١٩٢.

(٤) سورة الذّاريات ٥٥.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

قُرَّة أعين : قيل أصله من القُرّ أي البرد، فقرّت عينه، قيل : معناه بَرَدَتْ فصحّت[1].

واجعلنا للمتّقين إماما : اجعلنا أئمّةً يقتدى بنا[2].

عباد الرّحمن لهم أسوةٌ حسنةٌ في المصطفى ﷺ وفي المرسلين السّابقين عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه الّذين جعل الله تعالى لهم أزواجاً وذرّيّة. وقد قال عزّ من قائل خطاباً للمصطفى ﷺ في سورة الرّعد[3] : ﴿ولقد أرسلنا رسلاً مِنْ قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرّيّة. وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله. لكلّ أجلٍ كتاب﴾ إنّ عباد الرّحمن يتزوّجون النّساء، فلا رهبانيّة في الإسلام، وهم يسألون الله تعالى دائماً وأبداً أن يهبهم من عنده من الزّوجات والذّرّيّة ما تقرّ به أعينهم، وتنشرح له صدورهم، وتبتهج له نفوسهم، في مجال طاعة الله تعالى في المقام الأوّل، كما أنّهم يسألون الله تعالى أن يوفّقهم كي يكونوا أئمّة المتّقين، والنّموذج الطّيّب الّذى يقتدى به الصّالحون. إنّ عباد الرّحمن حريصون على أن تتّسع دائرة الصّلاح إلى أبعد الآماد وأرحب الآفاق.

وبشأن القول : ﴿قرّة أعين﴾ يصحّ أن يقال إنّنا بصدد ما يسمّى تطوّر الدّلالة. إنّ قرّة العين من القُرّ بمعنى البرد. وإنّ العرب الّذين نزل القرآن الكريم

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « قرّ » ٢/ ٥١٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣٤.

(٣) الآية ٣٨.

بلسانهم يعيشون في بيئةٍ حارّة، لذا فإنّ للنّسيم العليل والبرد اللّطيف وقعاً طيّباً على أجسادهم وأثراً حسناً في نفوسهم. إنّ العرب تتعب أجسادهم وتتأذّى أعينهم من الحرارة الشّديدة والسّموم اللاّفح. وفي المقابل ترتاح أجسادهم وتطيب أعينهم للهواء اللّطيف والنّسيم البارد. وقد انعكس الأثر الحسن لكلّ ذلك على كلامهم فعبّروا عنه حسّاً ومعنى. فبما أنّ العين إذا ارتاحت للهواء اللّطيف وطابت بالنّسيم العليل سعدت النّفس وانشرح الصّدر لذا فقد جاء على لسان العرب تعبيراً عن ذلك مثل هذا القول : قرّة العين، وبرد الفؤاد. إنّ الأعين حينما تبترد وتصحّ في تلك البيئة المعروفة عادةً بسمومها اللاّفح تمتلىء النّفس بهجةً وسرورا، لذا جرى على لسانهم القول : قرّة العين، تعبيراً عن سعادة النّفس.

وإنّ القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين يستعير ما يجرى على لسانهم تعبيراً عن سعادتهم في قوْل الحقّ جلّ وعلا: ﴿والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرّة أعينٍ واجعلنا للمتّقين إماما﴾.

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

يُجْزَون : يثابون على أفعالهم هذه الّتى فعلوها في الدّنيا[1].

الغرفة : منزلةٌ من منازل الجنّة رفيعة[2] وتدور مادّة : «غرف» حول رفع الشّيء وتناوله ومنه غَرْف الماء، والمِغْرفة لما يُتَناوَلُ به[3].

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٣٥.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : « غرف» ٢/ ٤٦٦.